الملاحم الشعرية

لعل البعض يعتبر أن الحديث عن الملاحم العربية فى مثل هذا البحث الذى نتناول فيه الرواية فضولا واستطرادا .. ولكن الحقيقة أن الحديث عن هذا الشعر الذى يسرد أحداثا قصصية ويكاد يقترب بشىء من المعالجة والجمع والتوفيق من الشكل الملحمى ، حديث مهم فى بحث الرواية العربية بصفة خاصة .. فالظاهرة الأساسية التى تلفت نظر الدارس فى هذه الروايات أن الشعر يرد على لسان جميع الأبطال بلا استثناء ؛ سواء كان هؤلاء الأبطال ممن يقولون الشعر، أو ممن يمكن أن يقولوا الشعر، أم كانوا أبعد ما يكونوا عن هذا بحكم رسم شخصيتهم وتحديد بيئتهم وزمان وجودهم .. فقد يكون مقبولا مثلا أن يرد على لسان بطل جاهلى قريب من الاسلام شعر عربى ، ولكن ماذا نقول فيما روى على لسان آدم أو نوح من شعر مثلا ! فوهب بن منبه فى كتابه التيجان يروى شعرا على لسان آدم قاله فى رثاء ابنه هابيل حين قتله أخوه قابيل يقول فيه .

أيـا هابيل يا ثمـر الفؤاد ... أبعدالعين مسكنك الضريح

ويدخل وهب فى جدال حول هذا الشعر وكأنما يحاول أن يثبت صحة نسبته الى آدم فيقول : « قال جبير بن مطعم هذه

القصيدة ليست لآدم ، هى منحولة .. وقال ابن عباس : تكلم آدم بجميع الألسن التى نطق بها بنوه من بعده من عربى وعجمى، وهذه الأسماء لم تعلمها الملائكة » .

وهذه المحاولة الساذجة تثبت أهمية الشعر عند هذا الراوى الكبير الذى تراه فى كتابه كله بعد ذلك لا يكاد يذكر حادثة الا ويورد على لسانه الشعر .. وأنت تحس فى طريقة ايراده لهذا الشعر أنه يكاد يؤمن بصحته وصدقه .. ونحن نضع أيدينا فى كتاب عبيد بن شرية الجرهمى على تفسير لهذه الظاهرة التى نراها متكررة فى كل كتب القدماء التى تعنى بالتاريخ والقصص والأخبار .. نرى هذا التفسير فيما يأتى على لسان معاوية فى حديثه مع عبيد اذ يصر على أن يسمع منه شعرا فى كل ما يقول من أحداث . يقول معاوية لعبيد : « سألتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة أبيات » ، ويقول له : « وأبيك لقد أتيت وذكرت عجبا من حديثك عن عاد ، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم فى الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ان من الشعر لحكما) قال عبيد : لقد صدقت يا معاوية ولقد سمعت ابن عمك (عبد الله بن العباس) يذكر عن رسول الله ذلك، وأخبرك يا معاوية أنه لما كان من وفد عاد ما كان وما قد حدثتك عنه ، وصارت عاد ووفدها أمثالا وأحاديث قالت العرب فيها أشعارا .. منها ما حفظناه ومنا ما لم نحفظه ، قال معاوية : فهات اسمعنى ما حفظته من ذلك » .

فنظرة الرواة الى الشعر تحدد ما له من أهمية عندهم وعند الشعب العربى الذى يتلقى مايروونه من قصص ، فهم لايتصورون حادثة تقع فى حياة كبير أو صغير دون أن يقال فيها شعر لأن الشعر ـ كما يقول معاوية ـ ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها .

وليس معنى هذا أن كل العرب شعراء، ولا أنهم كلهم يقولون الشعر .. وانما معناه أن العرب تعـودوا أن يسجلوا أحداثهم شعرا . فالحادثة لا تعد صادقة عندهم الا اذا كانت قـد جاءت فى شعر أحد شعرائهم .. ودليل ذلك ما نشهده من عبيد فى رده على معاوية فى ذلك الحديث الذى أوردناه ، اذ يذكر له شـعرا قاله أبو سعيد المؤمن عند هلاك عاد ، ثم شعرا للعباس بن مرداس يعظ رجلا من قومه كان ظالما لعشيرته ويزجره عن الظلم ويذكر له عادا وهلاكها ، ثم شعرا للعباس بن مرداس أيضا يذكر الحادثة ويخرج منها بحكمة ، ويذكر بعد هذا شعرا لعبيـد بن الأبرص الأسدى يخاطب النعمان ابن المنذر .. وشعرا للأعشى بن نصير اعشى بنى وائل .. ثم شعرا يقوله أسد بن ربيعة الكلابى، فشعرا على لسان كريم ابن معشر الثعلبى .. وهنا وبعد كل هذا الشعر يقتنع معاوية ويقول « لله درك ياعبيد ، حدثتنا عجبا من أمر عاد فالحمد لله القادر على ما يشاء من أمره » .

فدليل صدق القصة اذن أن يتناولها الشعراء فى شعرهم على مر العصور ، يذكرونها مستخرجين منها العبر والدروس .. ولذا فنحن نرى كل كتب الأخبار تحاول أن تؤكد صحة الخبر بطريقين : الأول هو رفعه الى قائله عن طريق سلسلة من النسب تحاول أن

تسنده آخر الأمر الى أحد الثقات .. والثانى هو أن نورد ماقيل فى هذا الخبر أو فى هذه الرواية من شعر .. فليس عجيبا اذن أن نرى معاوية يقول لعبيد اثر روايته للشعر : « لقد جئت بالبرهان فى حديثك يا عبيد » .

الا أن أمر الشعر فى هذه الكتب ينقسم الى قسمين : الأول هو ذلك الذى يرد على لسان أبطال الحادثة أنفسهم ، أو على لسان معاصرين لها كالشعر الذى يرد على لسان آدم وهود وطسم وتبع .. وهذا القسم لا شك مؤلف وموضوع .. والثانى شعر ينسب الى شعراء معروفين كالعباس بن مرداس وأعشى بنى وائل فى القصة التى حكيت لك ، وينسب الى حسان بن ثابت وامرىء القيس وأمية بن أبى الصلت وعبيد بن الأبرص والنابغة الذبيانى وتأبط شرا وغيرهم .. وهذه الأشعار بعضها موجود بالفعل فى دواوين هؤلاء الشعراء ..

والنوع الثانى من هذا الشعر كان يعنى عند المتلقين صدق الخبر وصحة القصة ، ولكنه يعنى عندنا وجود القصة نفسها فى أساطير العرب ، وانتشارها وتداولها بين العرب كجزء من تاريخهم وحكاياتهم ، وكحقيقة اما تاريخية واما أسطورية تكون جزءا من معتقداتهم وتراثهم الفكرى ..

أما النوع الأول من هذا الشعر وهو الذى يرد على لسان أبطال القصص فلنا عنده وقفة طويلة .. وسر هذه الوقفة هو أن هذه الظاهرة تستمر فى الرواية العربية بعد هذا استمرارا

يجعلها ظاهرة مكملة لتاليف الرواية العربية .. فهذا النـــوع من الشعر ، أى الشعر الذى يرد على لسان أبطال الحادثة ، نجده فى القصص التى يحكيها وهب والتى يحكيها عبيد ؛ ثم فى القصص التى ترد فى كتب الأنساب وكتب السيرة ، ونراها بعد هذا فى كتب التأليف ، وتستمر معنا بعد ذلك فى كل الروايات الشعبية التأليف أو الشعبية التناول ، كقصة عنترة بن شداد ، وقصة سيف بن ذى يزن . وقصة الأميرة ذات الهمة ، وفى الف ليلة وليلة ، وتغريبة بنى هلال ؛ والظاهر بيبرس .. وهى فى هذه القصص تبدأ من الشعر الذى يشابه الأشعار انجاهلية التأليف الى أن تصل الى الشـــعر القريب من العامية ، الى أن نجدها عامية خالصة فى سيرة بنى هلال .. ويتطور الأمر كذلك فى استعمال هذا الشعر حتى نجـــده فى آخر مراحله قد غدا هو وسيلة الرواية نفسها ؛ فالبطل لا يتكلم فى هذه القصص الا شعرا تتخلله بعض الجمل النثرية .. وهـــذا التدرج اللغوى يمكن اعتباره المؤشر البيانى الذى يدل على درجة الانفصال اللغوى ، ومدى اتساع الهوة التدريجى بين لغة الكتابة ولغة الناس .. ويمكن عن طريق هذا التتبع معرفة أسباب ذلك ودوافعه .. بل ويمكن اقامة دراسة لغوية كاملة تسير تاريخيـــا ومجتمعيا مع المجتمع العربى فى نمـــوه وتطـــوره ، وفى ازدهاره وانحطاطه ..

والواقع أن هذا الشعر لم يدخل هذه القصص عبثا ، وانما كان دخوله فيها أساسيا وجوهريا .. فهو أولا يكون عمودا فقريا

فى كل قصة ، ترتكز عليه الأحداث وتدور حوله .. والشعر كتعبير قولى منغوم أسهل حفظا وأقرب الى اللصوق بالنفس من الحديث النثرى المرسل .. ولهذا فالقطع الشعرية تبدو كالتكئه التى يستند اليها الرواة فى حفظ القصة كلها .. ويؤيد هذا أن معظم ما ورد من شعر انما يروى الأحداث مرة اخرى على لسان بطل من أبطال هذه الأحداث ، يرويها مرتبة حسب وقوعها ، وهو وان كان يمزج فى هذه الرواية الشعرية بين الأحداث الخارجية ويبين موقفه النفسى منها كمشارك فيها ومتأثر بها ، الا انها فى آخر الأمر وثيقة منغومة تحفظ الحدث من الزوال بما تتيحه من يسر من الحفظ والرواية .. ولعل هذا أيضا هو الذى جعل حجة العرب فى حديثهم ما يؤكدونه به من شعر ، حتى أصبح بيت الشعر دليلا لا يقبل المناقشة على صحة ما فيه من أسماء وأحداث ، وصحة ما روى هذا البيت فيه من حدث وناس .

والشعر ثانيا يدخل مكملا للحوار ، بل يدخل فى بعض الأحيان أساسا فى الحوار ، وفى المشاهد التى يقف فيها القاص عند حوار يسرده فى اطناب فلابد أن تلمح عادة مساجلة شعرية تدور بين أطراف هذا الحوار . ويظهر هذا بوضوح فى مواقف الصدام والصراع ، يستوى فى هذا الصدام الفكرى والصدام الحربى .. ففى قصة هلاك عاد التى يرويها عبيد يدعو هود ربه على عاد أن يبتليهم بثلاث سنين من القحط فاستجاب له الله .. وهنا تبدأ مساجلة شعرية كلما هل عام من هذه الأعوام ، فيروى عبيد شعرا على لسان أحد المؤمنين متشفيا بما حل بعاد منذرا الكافرين ،

غيرد عليه أحد المشركين شعرا ويذكر فى شعره ان السنين حلوة ومرة ، وأن ما حدث ليس نتيجة دعاء هود وانما هو أمر طبيعى لا دخل له لهود فيه .. ثم يمدح عادا ويشيد بذكرها ويعدد مآثرها ومناقبها .. وتستمر هذه المساجلة فى كل عام .. وعبيد فى كل مساجلة من هذه المساجلات يذكر اسم أحد المؤمنين وما قال من شعر ، ثم اسم المشرك الذى رد عليه وهكذا ..

اما فى المعارك الحربية فأنت تجد هذه الظاهرة اوضح ما تكون فى سيرة عنترة بن شداد ، فما يكاد عنتره يتعرض لأحد الفرسان حتى يبادره مفاخرا مباهيا ، ويرد عليه غريمه فى الحال بشعر من نفس البحر والقافية معارضا اياه ومفاخرا بنفسه متباهيا بقوته مدلا بقبيلته وأهله .. ولا تعفى سيرة عنترة حتى خصومه من الفرس والروم من هذه المساجلة الشعرية التى تسبق كل التحام بالسيف ، حتى لتحسب أن هذه المساجلة تقليد حربى تواضع عليه الناس ، فيقبل العدوان كل على الآخر مشرعا لسانه قبل سيفه ..

والواقع أن هذه المساجلات التى تدخل فى الحوار القصصى كثيرا تكاد تكون أقرب الصور التى عرفها العرب الى الأعمال المسرحية . فالمشهد القصصى يقف تماما من ناحية السرد بينما يغلب الشعر الحوارى هنا على كل معالم القصة ، ولعلنا نستطيع أن نقول ان استعمال الشعر فى الحوار هنا له دلالته الفنية فى تصوير الصراع وتجسيده . وفى ابراز المعالم النفسية التى يقوم عليها هذا الصراع . فالحاجة الى الشعر هنا ليست فضولا وانما هى

حاجة فنية تعين المؤلف فى تجسيد المشهد وتجسيمه ، وفى ابراز الدلالات التى تحيط به من كل نواحيه . وهى تتكامل فى هذه الحالة مع السرد بحيث تغدو واياه كلا فنيا متكاملا ..

والشعر ثالثا يرد على لسان أبطال القصص وشخوصها لرسم موقفهم من الأحداث ، أعنى أن الشعر فى يد القاص اداة للتعبير عن الانفعالات النفسية . وهو اداة لتصوير الجانب الذى لا يستطيع السرد النثرى أن يصوره بأمانة ودقة تامتين .. ويبدو هذا فى أروع صوره عند وهب بن منبه فى قصة مضاض ومى .. قصة الحب الخالدة التى حكيت لك من قبل .. فمى حين تقول :

مضاض غدرت الحب والحب صادق
وللحب سلطان يعز اقتداره

غدرت ولم أغدر وللعهد موثق
وليس فتى من لا يقر قراره

اذا جاءنى ليل تململت بالذى
دعا كبدى حتى تمكن ضاره

أبيت أقاسى النجم والليل دامس
وللنجم قطب لا يدور مداره

اذا غاب لم أشهد وكان محله
محلى وداري حيثما كان داره

اذا هاج ما عندى لأول غيرة
علاه اشتعال ما يطاق استعاره

مى هنا تعبر عن لون الحب الذى تعانيه ، ثم عن لون الغيرة التى تقاسيها تعبيرا يفوق كل ما يمكن أن يقوله القاص واصفا حالتها النفسية ومحددا مقدار هذه الغيرة التى أكلت هذا الحب العظيم أكلا .. ولجوء القاص الى الشعر هنا أمر لا مفر منه ان أراد أن يكون صادقا صدقا فنيا فى تصوير ابطال قصته .. وهو يرسم موقف مضاض من مى بنفس الطريقة ، ويورد على لسانه شعرا عذبا رقيقا معذبا اذ يقول :

سألتك بالرحمن لا تجمعى هوى
عليه وهجرانا وحبك جاره

فان لم يكن وصل فلفظ مكانه
اليه والا موطن الموت داره

الشعر هنا — كما ترى — ليس فضولا ، وانما هو تغير فى وسيلة التعبير اقتضاه الموقف واضطرت اليه الأمانة .. وليس من الأمر فى شىء أن يكون هذا الشعر موضوعا أو زائفا ، وانما يكفينا انه عبر حين عجز النثر أن يعبر ، وانه استطاع أن ينقل الينا مايريد القصاص أن يصوره من حال مضاض ومى ..

وهو يبدو أيضا عند عبيد بن شرية فى أروع صورة فيما حكاه على لسان لقمان من شعر عند موت كل نسر من النسور السبعة التى وعده الله أن يعيش عمرها جميعا .. فعبيد يقف عند كل نسر منها يذكر كيف عثر عليه لقمان ثم كيف عاش مع لقمان ثم كيف مات النسر وما قاله فيه لقمان من شعر .. وانت تحس فى

هذه القطع الشعرية تدرجا نحو اليأس والمرارة والخوف يزداد شدة من قطعة الى قطعة حتى اذا ما وصلنا الى القطعة السابعة وجدنا نغمة اليأس والمرارة تصل الى قمتها .. بل تكاد القطعة الأخيرة التى يرثى بها النسر السابع ونفسه معا تكون صرخة عميقة الجذور تحمل كل معانى الأسى واليأس بل والحنق الملىء بالمرارة .

وهـذه القطع التى يوردها عبيد على لسـان لقمان تحكى احساس رجل يموت سبع مرات ، عند موت كل نسر يحس انـه يقترب من الموت خطوة ، ويوقظه موت النسر لحظات ينتزعه فيها من الحياة ليريه النهاية المحتومة المقدرة .

ولست أحسب أن لغة يمكن أن تعبر عن مثل هذا الاحساس قدر لغة الشعر ، ولست أحسب أن القاص حين اختار الشـعر كأداة ليعبر بها عن هذه المراحل من قصته الا صادقا صدقا فنيـا مهما كان رأينا فى صحة نسب الشعر الى لقمان .

فاستعانة القاص بالشعر هنا ليس فضولا ولا حلية ، وانما هو لجوء الى أقرب الأدوات الى التعبير عما فى داخل النفوس ، واستعانة بأدق هذه الأدوات جميعا وأكثرها ابانة .. والقصاص العربى هنا انما يستعين بالشعر ليقدم ما نسميه نحن فى القصص الحديث بالمنولوج الداخلى .. ويتتبع بواسطة الشـعر ما نسميه نحن فى النقد الحديث بالحركة الداخلية لنفوس الأبطال .. فالشعر فى هذه الحالة يكمل الصورة ويعطيها عمقا ويرسم ظلالها والوانها، ويخرج القصـة من مجرد كونها سردا جامدا تأريخيـا لأحـداث

أسطورية ذات دلالة معينة لا تتضح الا فى النهاية ، الى قصة حية تعيش فى وجدان الناس بما لشخصياتها من حياة حقيقية فنيا ، مليئة بالانفعالات والانطباعات ، عامرة بالمشاعر المختلفة المتباينة المتضاربة .

والشعر رابعا يأتى فى آخر القصة أو بعد نهايتها زمنيا لينقل المضمون الذى أراده القصاص من قصته .. فالقصاص يستعين بالشعر يرويه على لسان أبطال خياليين أو على لسان شعراء حقيقيين ليعطى المضمون الذى سعى اليه من سرد قصته منذ بدايتها .. وهو فى هذا يهرب من ايراد هذا المضمون تقريرا على لسانه هو أو على لسان أبطاله،فيهرب بهذا من الخطابية والوعظية فى قصته التى يتركها تنتهى نهاية طبيعية دون أن يتدخل هو بحكمة الا فيما ندر .. ثم يأتى بهذا الشعر ليعطى كل ما أراد دون ما افتئات على جوهر قصته وفنيتها وأسلوب سردها .. والشعر فى هذه الحالة غالبا ما كون جمعا لما قاله الشعراء المعروفون فى الحادثة التى يذكرها والقصة التى يعنيها .. كما فعل عبيد فى حديث فناء عاد .. وهى فى بعض الأحيان تأتى على لسان شخصيات خيالية يخترعها القاص ليخرج بالحكمة التى يريد كما فعل وهب فى أكثر من موضع .. ولعل هذا يفسر ظاهرة وجود أبيات الحكمة فى آخر القصائد العربية كتقليد من تقاليد الشعر العربى .. لعل هذا التقليد أخذ من هذه الظاهرة التى نلمسها فى القصة ، فهو وان كان غرضا قائما بذاته فى القصيدة فهو فى القصة شىء مكمل .

أو هو اللمسة الأخيرة التى يتكامل بعدها العمل الفنى ويغدو وافيا بكل ما يراد منه ..

ولجوء القصاص الى الشعر هنا انما ييسر له أمرين : الأول هو التدليل على صدق قصته بما قال فيها الشعراء من شعر ، والثانى أن يحفظ هذا الشعر الذى تركز فيه كل تجربة القصة فيغدو كالأمثال المتداولة على السنة الناس فيذكرهم دائما بقصته .. والمعروف أن معظم الأمثال العربية اما أبيات شعرية ، أو شطر من البيت ، أو كلام مسجوع موسوق يسهل حفظه .. والمعروف أيضا أن كل هذه الأمثال انما ترد الى قصص بعينها .. ولكن لعل أهم ما يستفيده القاص من لجوئه الى الشعر هو هروبه من ورود الأحكام على لسانه هو وتخلصه من الأحكام والمضامين لايرادها على السنة غيره ..

وبعد فلعلنا الآن قد وضعنا أيدينا على سر هذه الظاهرة التى تلفت النظر فى القصص العربى ، أعنى ظاهرة ورود الشعر فيه بكثرة وحتمية .. ولعلنا نفهم الآن سر اصرار معاوية على أن يورد عبيد بن شرية شعرا فى كل ما يقول ، ثم لعلنا ندرك سر اطمئنان معاوية الى كل قصة يعضدها الشعر ويأتى فى ثناياها ..

الا أن لهذه الظاهرة جانبا آخر لا يقل عن الظاهرة نفسها خطورة وأهمية .. ففى قصة عاد الأوسط مثلا نرى عبيد بن شرية يذكر على لسانه شعرا يصف فيه حربه مع الفرس يبلغ ٣٣ بيتا .. ثم اذ يتوجه تبع الى الشام يقول فى ذلك شعرا يبلغ ٣٥ بيتا ..

ثم يقف ليذكر قومه وجبروته وسطوته فى ٤٣ بيتا .. وحين نزل تبع الى غمدان قال يذكر آباءه الذين ملكوا قبله الحصون التى كانوا ينزلون فيها باليمن فى ٤٤ بيتا .. فلمـــا رجع تبع من غزواته مر بالمدينة وترك فيها ابنه خالدا فقتله أهل المدينة فقال فى ذلك شعرا يبلغ ٤٧ بيتا .. ثم يعود ليقول فى نفس الحادثة ٣٩ بيتا .. ثم يقول فى نبوءة الحبرين له بخروج النبى محمد صلى الله عليه وسلم بدعوة الحق ٢٤ بيتا .. فاذا ما قتل الهذليين اللذين أرادا له الهلاك بغزو الكعبة قال فى ذلك ٢٢ بيتا من الشعر . فاذا ما كسى البيت العتيق قال فى ذلك ٥٠ بيتا من الشعر .. وقال تبع يمدح قومه ويفخر بقوته ونفسه ٥٤ بيتا .. وكان تبع يعرف النجـــوم وقال فيها من الشعر ٥٦ بيتا . وقال تبع فيما وطئه من البـــلدان ٦١ بيتا .. ويستزيد معاوية عبيدا من شعر تبع فيورد له عبيد من شعره ٥٢ بيتا .. وقال تبع فى حربه للأعاجم الذين اجتمعوا للقضاء عليه ١٠٣ بيتا .. ويعود معاوية فيستزيده من شعر تبع فيذكر له عبيد ٢٣ بيتا قالها تبع .. ثم يذكر عبيد أن تبع حين وقف أمـــام البيت الحرام قال فى الزهد ١٨ بيتا من الشـــعر .. وهكذا يبلغ ما جاء فى كتاب عبيد بن شرية الجرهمى من شعر على لسان تبع ٦٩٤ بيتا من الشعر ، بينما يروى وهب بن منبه فى كتابه التيجان كثيرا من الشعر على لسان اناس عاصروا تبعا ، وكان لهم دور فى قصته ، ويروى ابن اسحق فى السيرة أبياتا كثيرة أخرى حول تبع لأكثر من قائل ..

وهذا الشعر كله انما يروى فيه تبع ســـيرة حياته كاملة ،

غزواته وفتوحاته ، معاركه وانتصاراته ، ممزوجة كلها بتأملاته وآرائه .. كما تلمح فى هذا الشعر ما يلقى الأضواء حول معارف العرب فى عصره بالنجوم والشعوب والصناعات . وتلمح أيضا عاداتهم وتقاليدهم فى السلم والحرب .. وتكمل الأشعار الواردة فى الكتب الأخرى الصورة بما ترسم حولها من أطر ، وما توضح من مواقف بعض من اشتركوا بفعل فى حياة تبع ..

وقد نختلف فى قيمة هذا الشعر من ناحيتيه التاريخيةوالفنية. فالشعر الوارد على لسان تبع موضوع قطعا ، والشعر الوارد على لسان غيره قد يكون موضوعا وقد يكون صحيحا .. والشعر فى حد ذاته قد تكون له قيمة فنية من حيث الدلالة على نفسية تبع ورسم آرائه وأحلامه ، وصدى الأحداث الخطيرة التى عاشها فى نفسه ، وقد تكون دلالتها من هذه الزاوية ضعيفة .. بل ان هذا الشعر قد يكون من الناحية الشكلية البحتة موضع نقاش وجدال . ولكن الشىء الوحيد الذى لا جدال فيه هو أن هذا الشعر لو جمع بعضه الى بعض وربط شعريا لملء الثغرات لأكمل عندنا ملحمة طويلة لن تقل بحال عن ٦٩٤ بيتا وهى ما ورد فى كتاب عبيد ، وان كان من المرجح أن تزيد بما يمكن اضافته اليها من الكتب الأخرى والروايات التى جاءت عن طريق عبيد .. وهى من حيث قيمتها الملحمية خطيرة القيمة لأنها تسبق فى عصر روايتها وتدوينها الكثير من النصوص الجاهلية نفسها ، فهى والحالة هذه من اسبق الأعمال الشعرية . وقد يكون واضعها عبيد وقد يكون عبيد مجرد رواية ، وفى هذه الحالة تصبح عملا شعبيا ملحميا

مجهول المؤلف الحقيقى ولكنها تسجل تاريخ حياة ملك عربى خطير الشأن فتح كل العالم المعروف فى عصره آنذاك ، وضرب بسهم فى العلوم المعروفة فى عصره ، ولعب دورا خطيرا فى حياة الجزيرة العربية والأديان العربية ، اذ المعروف أنه انما كان يحارب لقتل أهل الشرك وأنه هو الذى حمل دين اليهودية الى اليمن ، وأنه عظم ووقر الكعبة ثم تنبأ بظهور محمد عليه السلام .

وهكذا تأخذ الملحمة كل مقوماتها من وصف للمعارك الحربية، ومن رسم للصراع فى الجزيرة العربية حول المعتقدات ، أو من تقرير لعظمة العرب وغلبتهم على كل الأمم .. ثم تأخذ دلالة خطيرة يمسها الاسلام كدين ، اذ تقدم الملحمة اعترافا كاملا لهذا الدين وتعلن أن معركة تبع ما هى الا معركة تمهيد للأرض التى يملؤها الاسلام بعد هذا نورا وعدلا .

وهذا الذى نذكره عن هذه الملحمة يحتاج الى دراسة متفرغة كاملة على أحد الدارسين أن يشغل نفسه بها فيقدم لنا صورة للملحمة العربية التى زعم الباحثون أنها لم توجد .. كما أن هذا الذى نذكره عن تبع ليس الا مثلا صغيرا وسط مئات الأمثلة التى يمكن بتتبعها العثور على ملاحم اخرى لا تقل روعة فى هذه الكتب الأولى ..

وبعد فأحسب أن الذى جرنا الى هذا كله هو ما لا حظناه من كثرة الشعر فى كتاب عبيد ، ولعل هذا يكون قد ساقنا الى شىء له قيمته فى دراسة القصة العربية والشعر العربى جميعا ..